﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [المؤمنون:109]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّدُّ بالزَّجر على قدر جرمهم

جاء الجواب تذييلًا للمحاورة، وتقريرًا على المصطرخين جزاءَ ما اقترفوه من ضلال أوقعهم في الجحيم، فقد كانوا يشمَتون بهذا الفريق من عباد الله تعالى، ولم ينصِتوا لمنطقهم، بل أسكتوهم، فما كان منهم إلا أن لجأوا إلى الله تعالى، فغفر لهم، وأخزى الظالمين[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرِيقٌ﴾: (فرق) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على تمييزٍ بين شيئَيْن مع فصلٍ بينهما[2]، والفِرْقُ: القِطعَةُ المنفصلة، والفِرْقة: الجماعة المُتفرّقة عن الآخرين[3]، فالتّفريقُ فصلٌ تامٌّ بينَ أمريْن كانا معًا[4]، والفِرْقةُ: مجموعةٌ كانت مع غيرها، ثمّ انفردت عنهم وتميّزت، يقول سبحانه: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [المائدة: 25]، ومعنى ﴿فَرِيقٌ﴾ في الآية الكريمة: جماعةٌ تميَّزت بإيمانها بالله.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حالُ عبادِ الله أنّهم يُؤمنون به ويدعونه بالغفران والرَّحمةِ

يخبر اللّهُ تعالى فيقول: لقد كان في الدّنيا جماعةٌ من عبادي المؤمنين مُتميّزةً عن الكفّار يدعون بإخلاصٍ فيقولون: مولانا لقد صدَّقنا بكَ، واتّبعنا رُسلَكَ؛ فاستُرنا وتَفضَّل علينا برحمتك؛ أَنْتَ خَيْرُ مَن نرجوه ليَرحمَنا.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 297، البقاعي، نظم الدرر: 13/ 190.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرق).
(3) الرّاغب، المُفردات: (فرق).
(4) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلّةُ فصل صدرِ الجملة عمّا قبلها:

فُصِلت جملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها استئنافٌ بيانيّ[1] في مقام التّعليل[2]؛ حيثُ أظهرت لماذا طَرَدَ اللّهُ أصحابَ النّارِ ومنعَ دعاءَهم، كأنّها جوابٌ عن سؤال مُقدَّر مَفادُه: لماذا مُنِع هؤلاء من الكلام؟ فيأتي الجواب: (إنّهم آذَوا عبادي)[3].

استئنافٌ في مقام التّعليل لـلآية (قال اخسؤوا فيها ولا تكلّمون)

بلاغة توكيد الجملة في صدرها:

جاء توكيد الجملة في صدرها بـ (إنّ) وضمير الشّأنِ ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ وذلك لتأكيد ما سيأتي ذِكْرُه، ولفتِ الانتباه والاهتمام إلى ما سيُذكر من موقفهم المَشين من عباد الله، وهو مُقدّمةٌ للجواب على طلبهم، وكالتّعجيل بإرهابهم[4].

التّوكيد للتّعجيل بإرهاب أصحابِ النّار

فائدة ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾:

بعد أن صَدّر تعالى جملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ﴾ بـ (إنّ) وضميرِ الشّأن، استعملَ الفعل ﴿كَانَ﴾ الدّالّ على المُضي والتّحقّق؛ لإثبات وجودِ فريق بهذه المواصفات في زمنٍ مضى؛ فهو كونٌ ثابتٌ[5]، لعلّ المخاطَبين قد نسوا ذلك وغفلوا عنه.

وجودُ الفريقِ الدّاعي من عباد اللـه مُتحقّقٌ ثابتٌ

سِرّ اصطفاء لفظ ﴿فَرِيقٌ﴾ دون (طائفة) أو (جماعة):

أوثِر لفظُ ﴿فَرِيقٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ دون (طائفة) أو (جماعة)، وذلك لأنّ لفظ ﴿فَرِيقٌ﴾ يُشعِر بالتّميّز، فهي جماعةٌ كانت كافرةً ثمّ تميّزت عن أهل الضّلال بالإيمان[6]،

الدلالة على أنّهم تَميّزوا عن أهل الضّلال بالإيمان

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 157.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 633.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 297، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 129.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 129.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 190.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 190.

بعد أنِ استفاقوا فالتزموا ودَعَوا ربَّهم، فما كان من هؤلاء الكفّار إلّا أن تَعَدَّوا عليهم استهزاءً وضحكًا، كما يُشْعِر لفظُ ﴿فَرِيقٌ﴾ بالضّعف؛ لأنّه مُشتَقّ من الفُرقة، والفُرقةُ ضعفٌ، ولمَّا كانوا ضعفاءَ في مجتمعهم، استضعفَهم هؤلاء الكافرون، واتّخذوهم سُخْرِيًّا.

معنى ﴿مِّنْ﴾ ودخولها على لفظ ﴿عِبَادِى﴾:

الاستهزاءُ وقع على فريقٍ من المؤمنين اختاروا أن يعبدوا ربَّهم

استُعمل حرفُ الجَرّ ﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ﴾، ودخول ﴿مِّنْ﴾ على ﴿عِبَادِى﴾ يدلّ على التّبعيض؛ فهم بعض عبادي؛ فموقفُ الاستهزاءِ وقعَ على فريقٍ منهم، وما كان لهؤلاء الكفّار أن يستهزؤوا بكلّ عبادِ الله ممّا يخافون جانبَه أو يرجون خيرَه، ودخولُ ﴿مِّنْ﴾ على ﴿عِبَادِى﴾ يُشعِرُ بالخصوصيّة، فقد عرّفَتْهُمُ الآيةُ بوصف العبوديّةِ لله؛ إظهارًا لمحلّ الاستهزاء منهم أنّهم عبدوا ربّ العالَمين، وافترقوا عن مِلّة الآباء.

سِرّ اختيارِ لفظ ﴿عِبَادِى﴾ وإضافتِه:

ميزةُ هؤلاءِ العبوديّةُ لله، ومَن كان عبدًا لله حماهُ مولاه

في اختيار لفظ ﴿عِبَادِى﴾ وإضافته إلى (يا) المتكلّم سِرٌّ بديع، إذ هو تعريف لهم بالعبوديّة لله ﷻ؛ ليَظهرَ مَحلُّ تميّزِهم عن غيرهم؛ فهم مَن تخلّص من الهوى، باستسلامه لربّ العالَمين التزامًا ورجاءً[1]، وهو من ناحيةٍ أُخرى تشريفٌ لهم بنسبتهم إلى مولاهم ﷻ، وهذه النّسبة كما تحمل التّشريفَ تحمل معها الحمايةَ؛ فمَن يَمَسّ عبادي أُصبُهُ بعذابي.

دلالة ﴿يَقُولُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

تجدُّدُ الالتجاءِ إلى الله، لشِدّة ما يُلاقون من المتكبّرين

استعملت الآيةُ لفظَ ﴿يَقُولُونَ﴾، وفي اختيار هذا اللّفظ دلالاتٌ عديدة؛ فلفظُ القولِ في مادَّتِه يُشير إلى معنًى في النّفس يُعَبَّر

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 190.

عنه بشكلٍ مضبوط[1]، فهو مِصداقُ ما في القلب[2]، وإظهارٌ لما وقرَ في القلب من الإيمان وجميلِ الالتجاءِ إلى الله، وهو موقفٌ حقيقٌ بالاعتبار والاحتذاء[3]، وجاء لفظ القول بصيغة المُضارِع؛ ليُشيرَ إلى دلالة التّجدُّد في القول[4]؛ فهم يدعون بهذا الدّعاء بشكلٍ مُتكرِّرٍ، ويمكن حملُه على تصوير مشهد القول اللّطيف البليغ؛ وآخرون يستهزؤون به؛ ممّا يُبيّن سماجةَ الاستهزاء.

سِرُّ استعمالِ لفظ ﴿رَبَّنَآ﴾ دونَ (إلَهنا):

لا يستوي تضرّعُ الاختيارِ وتضرّعُ الاضطرار

من بديع التّكرار في الآيات أنِ استَعمل كِلا الفريقيْن لفظَ ﴿رَبَّنَآ﴾ في دعائه فقال أصحابُ النّار: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾، وقال فريق من عباد الله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾؛ وذلك يدلُّ على شعور التّضرّع المُشترَك بينَ الفريقيْن لله ﷻ، فكِلاهما يدعو بتَضرُّع وتَذلّل بشعورٍ كاملٍ بأنّ الله هو ربّنا الذي يجيب دعاءَنا، ويَغفرُ عثراتِنا[5] مع فارقٍ عظيمٍ بينَ تضرّع الاختيار وتضرُّع الاضطرار.

فائدةُ ذِكْر الإيمان دون غيره: ﴿ءَامَنَّا﴾:

تصديقٌ بالآيات مقابل التّكذيب بها

عند ملاحظة دعاء عباد الله ذُكِر الإيمان ﴿إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ وحده ودون غيره، تركيزًا على أنّ ما فاز به هذا الفريق عن غيره هو الإيمان بالله ﷻ[6]؛ فالإيمان استجابةٌ لرسل الله وتصديقٌ بآيات الله[7] مقارنةً بإعراض الآخرين وتكذيبهم بالآيات.

دلالةُ الفاءِ ودخولُها على الطّلب بالمغفرة والرّحمة:

المغفرةُ والرّحمة يـترتّـبـان عـلى الإيمان

لمّا أعلن عبادُ الله عن موقفهم - وهو الإيمان بالله والتّصديق

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قول).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 66.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10168.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 190.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 190.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 190.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5123.

بآياته - جاءت الفاء في الآية ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾ لِتُظهرَ ترتُّبَ ما بعدَها على ما قبلَها، فالمَغفرةُ والرّحمةُ مُتَسبّبةٌ عن الإيمان، وإذ قد آمنا فيا ربِّ اغفر وارحم؛ وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ غُفران اللّهِ لا يكون بغير إيمانٍ، وأنّ دفعَ عذابِ الآخرةِ لا يصلح دونَ إيمان في الدّنيا ﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ١٣﴾ [الجنّ: 13]، ووراءَ ذلك من المعنى تعظيمُ الإيمان، وبيانُ كيف خَسِر الكفّار بخسران الإيمان شيئًا عظيمًا.

بلاغة الطّلب في ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا﴾:

دعـاءُ التّضرّع والالـتـجـاء لما يَنتَظِر المُقصّرين من سوء المآل

طلبَ عبادُ اللّهِ المؤمنون بإعلانهم إيمانَهم أن يغفرَ اللّهُ لهم ويرحمَهم في قوله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا﴾؛ وهذا الطّلب دعاءٌ من الأدنى وهو العبد إلى الأعلى وهو الرّبّ، فهو أمرٌ في ظاهره، ودعاءٌ يحمل معانيَ الالتجاء والتّضرُّع في باطنه، وتلك صورةٌ من صور التّعبُّد رائعةٌ، وفي التّركيز على المغفرة والرّحمة إبرازٌ لَمدى حاجة عباد الله إلى سَتر ربّهم وإحسانه؛ فالعبدُ يُخطِئ ويحتاج، والرّبُّ يغفر ويُحْسِن، وأَعْظِم بذلك طلبًا إذا استحضر القارئُ مشهدَ العذابِ السّابق وحالَ أصحابِه؛ فهو مشهد حقيقٌ بالتّعوّذ منه ورجاء النّجاة.

غرضُ الدّعاء بالمغفرة في ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾:

شعورٌ بالتّقصير يستدعي طلبَ الغفران

أوّلُ طلبٍ لعباد الله بعد أن قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ هو المغفرة، ولعلّ الغرض من طلب المغفرةِ هنا هو شعورُهم بتقصيرهم في الأيام الخوالي[1]، إذ كانوا على ضلال حيارَى؛ فجاءتهم آياتُ الحَقّ فآمنوا، ثمّ لاحظوا الفرقَ بينَ الإيمان والكفر في مجريات حياتِهم، أين حياةُ الكفّارِ من طَيّب حياةِ الإيمان؟! فكم فرّطوا؟ وكم فاتهم مِن الخير؟!

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 190.

سِرّ تقييد المغفرة بالجارّ والمجرور ﴿لَنَا﴾:

هَـمُّ عـبـادِ الله تـقـصـيرُهـم، ومـطـلـبُـهـمُ التّجاوز عنهم

قُيِّدت المغفرةُ في قوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ بالجارّ والمجرور؛ والسّرُّ في ذلك هو التفاتُ هؤلاء العباد إلى أنفسِهم ابتداءً، فلم يشتغلوا بظُلم الآخرين واستهزائهم؛ ولكن كان همُّهم الأوّل كيف يُغفَر لهم، وكيف يتجاوزون القنطرةَ بإيمانهم.

سِرّ تقديمِ المغفرة على الرّحمة:

التّخلية قبلَ التخلية من شأنِ أهلِ الله

يُلحظ في دعاء عباد الله أنّهم قدّموا طلبَ المغفرةِ على الرّحمة، ولعلّ السّرَّ في ذلك هو إحساسُهم بتقصيرهم، فبدَؤوا بحساب ذنوبهم قبلَ ملاحظة حسناتِهم، وتقديمُهم لحقّ الله – وهو العبادة والطّاعة – على رجائهم – وهو الإحسان والرّحمة – دلّ على عملهم بمبدأ: التّخلية قبلَ التّحلية[1].

بلاغةُ طلبِ الرّحمة:

شعورٌ بالقصور يستدعي طلبَ الرّحمةِ

بعد أن طلب عبادُ الله غفرانَ ذنوبهم بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ زادوا فقالوا: ﴿وَٱرۡحَمۡنَا﴾، وطلبُ الرّحمةِ هنا هو طلبُ الإحسان بالهداية ووراثةِ النّعيم، ويحمل أيضًا معنًى بلاغيًّا آخَر، وهو شعورُ القُصور فيهم؛ لأنّهم يشعرون بأنّ الله إن جازاهم بشيءٍ فهو تفضّلٌ منه، ولا يحسبون أنّهم عملوا ما يستحقّون عليه جزاءً[2].

نوع التّذييل ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ بعد سؤال الرّحمة:

تلهيبٌ للإجابة وتضرّع في الدّعاء

ذُيّلت الآية بعبارة: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وهو تذييلٌ وتلهيبٌ للإجابة؛ في بصائرِ المُتَحَدَّث عنهم، فأنتَ خيرُ الرّاحمين لذلك رجوناكَ أن تغفر لنا وترحَمَنا، وهو أسلوبٌ يُستعمل للحَثّ على الإجابة والتّضرّع في الدّعاء[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5124.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5124.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 190.

تلوين الخطاب بعد الإخبار عنهم بالخطاب:

تصوير مشهدِ عبادِ الله أدعى للتّأثر والاقتناع بسماجة موقفِ الكفّار منهم

من بديع أسلوب الآيات هنا تلوينُ الخِطاب؛ فقد جاء الحديثُ عن فريق من عباد الله بطريقة الغَيبة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾، ثمّ تحوّل إلى ذِكر خطابِهم مع الله؛ وهو دعاؤُهم الخالِصُ: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وهذا التّلوينُ بديعٌ؛ إذ ترك المُخبَر عنه يتحدّث مباشرةً؛ ليَتِمّ استحضارُ تلك الصّورة مع صورة الاستهزاء بعدَها، وفي تصوير المشهد من الإقناع والتّأثير ما فيه.

سِرّ التّعبير بـ ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾:

رحمة الله هي خيرُ الرّحماتِ، ولا مانعَ لها إلّا حكمةٌ بالغة

جاء التّعبير عن ربّ العالمين بعد طلب المغفرة والرحمة بأنّه سبحانه ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، والسِّرُّ في التّعبير بذلك هو استحضارُ أنّ الرّحمة التي تأتينا منه هي خير رحمة، وأنّ مَن أخرس أصحابَ النّارِ هو خيرُ الرّاحمين؛ فرحمتُه هي خير الرّحمات[1]، فإن مَنَعَ فلِحِكمَةٍ بالغة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفَريق والجماعة:

الفريق جماعةٌ تميّزت بميزةٍ وانفصلت لأجلها

تتّفق الفِرْقَةُ والجماعة في أصل المعنى؛ وهو العدد من الأفراد بينهم جوانبُ مشتركةٌ، فإن جَمَعَهُم جامِعٌ صارت جماعةً[2]، إلّا أنّ معنى الفريقِ له خصوصيّة؛ فالفريقُ جماعةٌ كانت مع آخرين، ثمّ افترقت وتميَّزت عنهم حتّى انفصلت، فسببُ الانفصالِ هو ما يُميّزها؛ وهو قِوامُ جماعتِها.

العِباد والعبيد:

العبادُ والعَبيد مفهومان مشترِكان في الدّلالة، مختلفان في بعض

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5124.
(2) الرّاغب، المُفردات: (جمع).

العبيدُ عُبِّدوا اضـــطـــرارًا، والعِباد عَبَدوا اختيارًا

الفروق، فهما من ألفاظ الجُموع، ويتّفقان في أصل المعنى، وهو الانقياد والإذعان، كما يتّفقان في المُفرد وهو العبد؛ إلّا أنّ العباد لِمَن اختار أن يكون عبدًا للّه ﷻ، والعبيدُ لِمَن اضْطر للعبادة[1]؛ لذلك فالعبيد موالي عُبِّدوا اضطرارًا، والعِبادُ عَبَدوا اختيارًا.

(1) الخليل، العين: (عبد).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»